

وَوَحَّدَ (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم»^(١).

وربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوحد النظر لأن رؤيته ﷺ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائيين. وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لآخر. فالكلام يختلف موقعه من مستمع لآخر، ولذلك وحد الرائيين لأنهم يرون شيئاً واحداً وجمع المستمعين لأن أثر ذلك مختلف عندهم.

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١١﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [الشعراء] فجمع الشافع ووحيد الصديق: «فإن قلت: لِمَ جمع الشافع ووحيد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق»^(٢) «ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء»^(٣) وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أندر.

وقريب من ذا قوله تعالى ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

فجمع أولاً فقال: (ترونها) ثم وحد فقال: (وترى الناس) جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لِمَ قيل أولاً: (ترون)، ثم قيل: (ترى) على الأفراد؟

قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائيين لها. وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم»^(٤) وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

(١) البرهان ٢٢٣.

(٢) الكشاف ٤٣٠/٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٤٩١.

(٤) الكشاف ٣٤١/٢.

التقديم والتأخير

يمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير على قسمين:

الأول: تقديم اللفظ على عامله نحو: (خالداً أعطيت) و: (بمحمد اقتديت).

الثاني: تقديم الألفاظ بعضها على غير العامل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة] ومثل: (أعرت خالداً كتابي) و: (أعرت كتابي خالداً).

١- تقديم اللفظ على عامله

ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك. وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص فقولك: (أنجذت خالداً) يفيد أنك أنجذت خالداً ولا يفيد أنك خصصت خالداً بالنجدة بل يجوز أنك أنجذت غيره أو لم تنجد أحداً معه. فإذا قلت: (خالداً أنجذت) أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنت لم تنجد أحداً آخر.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] فقد قدم المفعول به (إياك) على فعل العباداة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال في الأولين؛ وسبب ذلك أن العباداة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر] وقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة] فقدم المفعول به على فعل العباداة في الموضوعين وذلك لأن العباداة مختصة بالله تعالى.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود] فقدم الجار والمجرور للدلالة على

الاختصاص وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يقدم مفعول الهداية على فعله فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال: (إياك نعبد) وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن تقول: اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً غيري أو خصني بالهداية من دون الناس. وهو كما تقول: اللهم ارزقني واشفني وعافني. فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه.

ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المُلْك] فقدّم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وأخر (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) وذلك أن «الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه»^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى] «لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية]. فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد] وقوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة] فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب

(١) البرهان ٢/ ٤١٢ وانظر التفسير الكبير ٣٠/ ٧٦.

(٢) الطراز ٢/ ٧٠-٧١.

بعضهم^(١) بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس] وقوله: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾ [هود] وقوله: ﴿كُلُّ إِنْسَانٍ رَاجِعٌ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ [الأنبياء] وغير ذلك من الآيات.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت] فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتيح الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال: (لا يعلمها إلا هو)؟

وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أن يفيد الاختصاص. ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام] فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء. ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى] إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

٢- تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والعناية باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة

(١) انظر الطراز ٧١/٢.

معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال . ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذلك . والقرآن أعلى مثل في ذلك فإننا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام . فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء، ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير .

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم .

فإذا قيل لك مثلاً : لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟

قلت : لأن الاهتمام بالسماء أكبر .

ثم إذا قيل لك : ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟

قلت : لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر .

فإذا قيل لك : ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين المواطنين، بحيث تبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديم السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً . وكذلك بقية المواطن الأخرى . أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام . والاكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذ كل واحد يقول لك: إن عنيتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق .

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ وورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة. وسنوضح هذا القول المجمل ببيان شاف.

إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام - مثلاً - متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر] فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة] لأن السنة وهي النعاس تسبق النوم^(١) فبدأ بالسنة ثم النوم.

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود^(٢) قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْئَلِهِمْ﴾ [العنكبوت] فإن عاداً أسبق من ثمود.

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) - باب العطف.

(٢) الإتيان ١٥/٢.

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور^(١) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء] ﴿٣٦﴾ فقدّم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود. وقال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور] ﴿٤١﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام] ﴿١﴾ وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا: ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحجر] قالوا: لأنه عز فحكم^(٢).

ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعزّ أي غلب فالقوة أول قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠، ٧٤] وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف، منه تقديم الله سبحانه في الذكر^(٣) كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء].

فقدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم. كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصديقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فبه تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل. ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلّ صنفهم.

(١) الإتيان ١٥/٢.

(٢) الإتيان ١٤/٢.

(٣) الإتيان ١٤/٢.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم^(١).

وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى، وانظر غافر ٢٠] وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء، غافر ٥٦].

وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان] فقدم السمع على البصر.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان] .

فقدم الصمّ وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر. قالوا: لأن السمع أفضل^(٢). قالوا: والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أصم، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمي لفقد ولده.

والظاهر أن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

ويمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى، ولذا حين قال موسى في فرعون: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ﴾ [طه] قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه] .

(١) انظر الكشاف ٥٣١/٢.

(٢) انظر البرهان ٢٥٤/٣.

فقدم السمع لأنه يوحى بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يندّ عن سمعه شيء .

وقد يكون التقديم بحسب الرتبة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿١١٠﴾ هَمَازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١١٢﴾ [القلم] « فإن الهماز هو العيب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النميمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص (١) . »

فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله: (أثيم) وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً. جاء في (بدائع الفوائد): « وأما تقدم (هماز) على (مشاء بنميم) فالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان. والهماز هو العيب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميم. وأما تقدم (مناع للخير) على (معتد) فالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره» (٢).

وجعلوا منه تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣٧﴾ [البقرة] وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ [الأنفال] وذلك أنه «خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن. ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم» (٣).

ويمكن أن يُقال: إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه.

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٢ .

(٢) بدائع الفوائد ١/٦٢ .

(٣) بدائع الفوائد ١/٧٤، البرهان ٣/٢٤٩ .

وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة] في آيات كثيرة وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء] قالوا: وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن «المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ [سبأ] فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً. والعموم قبل الخصوص بالرتبة»^(١).

وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم. وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم.

ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكثر الذهب والفضة: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة] فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهر « قيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم»^(٢). فتدرج بحسب الرتبة.

وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة] فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتدرج من القلة إلى الكثرة. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة. والعكوف يكون في المساجد عموماً. والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد. والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم أن كل راع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر. فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة^(٣).

(١) البرهان ٣/٢٤٩، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) الكشاف ٣٨/٢.

(٣) انظر بدائع الفوائد ١/٦٥ والبرهان ٣/٢٥٠ وانظر معاني النحو - باب العطف.

ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام. قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ آبَائِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة] فالطائفون هم الصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً، ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج] فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير.

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَمْرِيئِرٌ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران] فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة، ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع وهو أقل وأخص^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن] فبدأ بالكفار لأنهم أكثر(*) قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [يوسف].

(١) بدائع الفوائد ٨/١.

(*) أو هو إشارة إلى أنه سيبدأ بذكر الكافرين ثم بذكر المؤمنين بعدهم فقد قال بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ وقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا وَلَنْ يُعْزِمَهُمْ ثُمَّ لَنَنْبِتُنَّ لَهُمْ لُجُنَّجًا مِّمَّا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا بِحَسْرَةٍ عَلَيْهِ وَسَيَّئِلُهُ وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٦٦﴾﴾.

فقدم الكلام على الكافرين ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً. ولا يناقض هذا ما ذكرناه في تعليل التقديم ولا يخالفه من أن التقديم ههنا إنما جرى بحسب الكثرة والقلة إذ ربما كان أكثر من ملحظ للتقديم والتأخير. فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم. وهو تعاضد في رفيع.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ﴿٢١﴾﴾ [فاطر] فقدم الظالم لكثرة ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله ثم السابقين وهم أقل^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: ((فإن قلت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيدان بكسر الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالاضافة إليهم والسابقون أقل من القليل))^(٢).

ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة] إشارة إلى ندرتهم وقلة وجودهم؟

قالوا: ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة] قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر. وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴿٢٤﴾﴾ [النور] لأن الزنى فيهن أكثر^(٣).

ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على «الكشاف» قوله: «وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام^(٤)، «ولأن مفسدته تتحقق بالاضافة إليها»^(٥).

وقد يكون التقديم لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في موضع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضي السياق.

فمن ذلك تقديم لفظ (الضرر) على (النفع) وبالعكس قالوا: إنه حيث تقدم النفع على الضرر فلتقدم ما يتضمن النفع، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا

(١) انظر الاتقان ١٥/٢.

(٢) الكشاف ٥٧٨/٢.

(٣) الاتقان ١٥/٢.

(٤) حاشية ابن المنير ٣٧٣/٢-٣٧٤.

(٥) تفسير البيضاوي ٤٦٢.

ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف] فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف] فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك قال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف] فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

وقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿١٣٩﴾ [يونس] فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّي إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ ﴿١٣٩﴾ [يونس] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَابِئًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ ﴿١٤٠﴾ [يونس].

فقدم الضرر على النفع في الآيتين. ويأتي بعد هذه الآية قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ هَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ [يونس] فكان المناسب تقديم الضرر على النفع هنا.

وقال: ﴿قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ﴿١٤٢﴾ [الرعد]. فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ﴿١٤٣﴾ [الرعد] فقدم الطوع على الكره.

وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ﴿١٤٤﴾ [سبأ] فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله: ﴿قُلْ إِنْ رَأَيْتُمُ الْمُنَافِقِينَ يَمُرُّونَ بَيْنَ يَدَيْكَ فَزَاوَوْا لَهُمْ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٤٥﴾ [سبأ] فقدم البسط.

وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظيتين^(١).

ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب. فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿١٤٦﴾ [المائدة] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿١٤٧﴾ [فصلت] وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوْلِ﴾ ﴿١٤٨﴾ [غافر].

(١) انظر البرهان ١/١٢٢، البرهان للكرمانى ١٩٧ وما بعدها، ٣٤٩ درة التنزيل ٢٠٩.